١

«ثورة العطش» تجتاح وادى النيل*

الذين شاهدوا فيلم «الأرض»، من إبداع المخرج المتفرد «يوسف شاهين»، عن رائعة الأديب «عبد الرحمن الشرقاوى» التى حملت الاسم ذاته، لابد وأنهم يتذكرون المشهد الختامى الفذ الذى أداه ببراعة فائقة الفنان الراحل محمود المليجى، مجسداً دور الفلاح المصرى (الجدع)، «محمد أبو سويلم»، الذى رفض الانصياع لإرادة كبار مُلاك الأراضى، والمدعومين بسلطة الحكم وقوات قمع النظام، الطامعين فى أرض الفلاحين الفقراء، فتصدى لهم بقوة، وَحَرَّضَ أخوته وجيرانه وأهل بلدته من الفلاحين، على المقاومة والصمود، فى وجه القهر والعنف والعدوان على أرضهم الطيبة، لكن «موازين القوى» أجهضت انتفاضة الفلاحين فى مواجهة طغيان ملاك الأرض الأغنياء، وحوصرت القرية بقوات «الهجّانة» المكونة من أهالى النوبة والسودان الطيبين، الذين أُجبروا على قهر أشقائهم الفلاحين، فتم فرض حظر التجوال على القرية، وعُذب الفلاحين المتمردين، ورُبط «محمد أبو سويلم»، بأوامر «الباشا» قائد القوة العسكرية، إلى مؤخرة حصان جامح، سحله على أرضه الطيبة لكى يرويها بدمائه الطاهرة، وبينما ينتهى الفيلم على لقطة مكبرة لوجه الفلاح الأصيل «أبو سويلم» المحتضر وهو ينزف دماً، وعلى جسده الفارع الذى يجره الحصان فوق أرضه الجريحة، وعلى يديه القويتين وهما تتشبثان بجذور نباتاته الخضراء التى زرعها بنفسه، وبأعواد شجيرات الذهب الأبيض التى عاش يحلم بها.. كانت أغنية الجموع الحزينة تعبر أبلغ تعبير

* جريدة «الأخبار» اللبنانية ـ ٢٠٠٧/٨/٩.

عن قيمة الماء والأرض للفلاح المصرى، ولكل فلاح على أرضه البسيطة:

«الأرض لو عطشانة.. نرويها بدمانا».

● الأرض أرض الفلاحين

مقولة «هيرودوت» الشهيرة: «مصر هبة النيل» ليست صحيحة بصورة مطلقة، فالنيل يمر بأراضى العديد من الدول الأفريقية، لم تشهد واحدة منها حضارة كحضارة مصر ولا إنجازات العائشين فوق أراضيها، الأصح أن مصر هبة فلاحيها، الذين مارسوا الزراعة منذ فجر التاريخ، وأبدعوا حضارة زاهرة لازالت علاماتها باقية على مر الدهور، ولأن الفلاح المصرى عاش طوال قرون عديدة تحت وطأة القهر والاستغلال والفقر، علمته هذه المراحل الطويلة من المعاناة فضيلة الصبر على المكاره، واحتمال الأذى والبطش، غير أنها أيضاً علمته أن الثورة واجبة عند اللزوم، حينما ينفذ معين صبره ولا يرى مفراً من التمرد، مهما كانت التكاليف وأياً كانت النتائج، ثار الفلاحون المصريون فى الأسرة السادسة (الفرعونية) فيما عرف بأول ثورة (طبقية) فى التاريخ، وثاروا على الغزاه من كل الأنواع، الذين وجدوا فى مصر وفلاحيها البقرة الحلوب، التى اعتصروا ضروعها بلا رحمة أو شفقة، وفى التاريخ المعاصر ثاروا على الولاة والمماليك والعثمانيين والفرنسيين، والإنجليز تلبية لنداء عرابى عام ١٨٨٢، ثم سعد زغلول عام ١٩١٩، وكانوا قبلها قد ثاروا على الاحتلال البريطانى فى «دنشواى»، وعُلقوا على أعواد المشانق انتقاماً لثورتهم، ثم ثاروا فى «بهوت» و«كفور نجم» على الإقطاع قبل يوليو ١٩٥٢ وبعده فى «دكرنس»، ودوت صيحات غضبهم فى كل الأرجاء.

تمتع الفلاحون المصريون بوضع أفضل نسبياً بموجب إجراءات ثورة يوليو وقوانين إصلاحها الزراعى. إذ وزعت أراضى كبار الملاك على

الفلاحين المعدمين فأمنت لهم حداً مقبولاً من ضمانات الحياة، كفلت لهم تطويراً نسبياً لحياتهم، وتعليماً مجانياً أرقى لأطفالهم، وعلاجا أفضلً لمرضاهم، وهو ما كان أحد مستهدفات النظام الانقلابى الساداتى - المباركى، الذى راوغ ودار لسنوات طويلة حتى استطاع استصدار قوانين ارتدادية، نُفِّذَتْ منذ عام ١٩٩٦، بموجبها تم نزع الأراضى التى صادرتها ثورة يوليو ووزعتها على الفلاحين الفقراء، قبل نحو أربعة عقود، وإعادتها إلى «أصحابها» من أغنياء الريف، ومنذ ذلك التاريخ أخذت أوضاع الفلاحين المصريين فى التدهور، إذ طردوا من بيوتهم، وحرموا من محاصيلهم، وتشردت أسرهم، وفُرض عليهم - مجدداً - بقوة القهر أن يحرموا من أرضهم التى اعتاشوا على أديمها لأربعين عاماً كاملةً.

• عطشان يا صبايا.. دلونى على السبيل

كان لهذا الإجراء وقع الصدمة على الفلاحين المنتزعة أرضهم،ولأن الفلاحين كانوا محرومين من الوعى بالتنظيم، وبلا اتحاد للفلاحين يقود نضالهم ضد مغتصبى حياتهم، وحركة المعارضة السياسية فى البلاد ضعيفة وغير موحدة، جاء احتجاجهم هشاً ومرتبكاً، ورغم سقوط الجرحى والشهداء فى معارك ضارية مع قوات الأمن المنحازة للأغنياء لم يستطع أن يوقف هجمة السلطة الغادرة، التى تلتها هجمات أخرى عديدة، تمثلت فى رفع القيمة الإيجارية للأراضى المستصلحة المؤجرة، ورفع أثمان البذور والأسمدة الكيماوية وخدمات الزراعة الأخرى...، وهو ما أثر سلبياً على مستوى معيشة الفلاحين، وأدى إلى تفشى عناصر التمرد والغضب داخلهم، ثم كانت الطامة الكبرى بتفجير «أزمة العطش» التى ترتبت على قصور فادح فى إمداد الفلاحين المصريين بمياه الشرب، وكذلك مياه الرى للأراضى المزروعة، فى بلد عنوانها وشريان الحياة فيها «نهر النيل».

• **البحر عطشان مابيضحكش!**

الإحصاءات الرسمية، حسب تقارير وزارة الدولة للتنمية المحلية - تشير إلى أن نصيب الفرد من مياه الشرب فى مصر، قد تراجع بصورة واضحة خلال القرنين الماضيين على نحو ما يوضحه الجدول التالى:

العام	نصيب الفرد من المياه بالمتر المكعب
١٨٠٠	٢٢٠٠
١٩٥٠	٢٣٧٦ (الزيادة بسبب إنشاء السدود وتحسن حفظ المياه)
١٩٨٠	١٥٠٠
١٩٩٣	١٠٣٥
١٩٩٧	٩٠٠
٢٠٠٧	٤٧٠

وبالطبع فإن فقراء مصر، وسكان الريف بالذات، كانوا هم أول من عانى من ثبات معدلات تدفق مياه النيل، فى الخمسين عاماً الأخيرة، مع ازدياد المواليد، وتضاعف أعداد السكان، من نحو ٢٠ مليوناً، فى منتصف القرن الماضى، إلى نحو ٧٦ مليوناً هذا العام، لكن السبب الأساسى الذى فاقم من «أزمة المياه» فى مصر، مؤخراً، هو الاستخدام الترفى السفيه للمياه المحدودة، من قبل شريحة الأغنياء واللصوص وناهبى المال العام، وأثرياء الاحتكار والمضاربة فى الأراضى، و«محاسيب» السلطة، الذين راحوا يقتسمون تركة الشعب المصرى، بجشع غير مسبوق، وأدى هذا الوضع إلى حرمان أكثر من ربع المصريين من المياه أغلبهم من الفلاحين الفقراء، فالفيلات الفاخرة والقصور المنيفة، بحدائقها الوارفة الهائلة الاتساع، ونوادى «الجولف» التى يستخدمها نفر محدود من صفوة الصفوة،

والمنازل الفاخرة بحمامات السباحة وما تستهلكه من كميات ضخمة من المياه، والمدن والقرى السياحية، والمشاريع الضخمة الفاشلة، كمشروع «توشكى» الذى بدد المليارات من الدولارات، والملايين من أمتار المياه المكعبة، بلا مردود حقيقى.. إلخ، امتصت ماتبقى لمصر من رصيد مائى، هو أقل من الحاجات الأساسية للبلاد أصلاً، الأمر الذى كان يستوجب ترشيداً واعياً للمياه، واستخداماً حصيفاً لها تبعاً للأولويات الرئيسية.

وهناك آراء أخرى لها أرجحيتها، تستند إلى الخبرة الشعبية المتراكمة، تضيف إلى الفشل الإدارى فى مسألة توفير المياه للمواطنين المصريين، استهداف السلطة، من وراء «تأزيم» وضع مياه الشرب والرى فى الريف المصرى التمهيد لـ «تحرير» مياه الشرب والرى، و «خصخصة» شركاتها، وبيع المياه إلى الفلاحين المصريين، بزعم الحاجة إلى تغطية تكاليف تطوير شبكات المياه، وتحسين خدماتها ونوعيتها، وهو ما أعلنته وزارة الإسكان، بطرحها مناقصة عالمية للشركات، لإنشاء محطات لمياه الشرب والصرف، حيث أشارت الوزارة إلى أن نظام الامتياز الجديد سيعطى للشركات الأجنبية، الفائزة بالمناقصة، مسؤولية إنشاء المحطة وتشغيلها، ومن ثم الإنفاق عليها وتحديد قيمة الخدمة المقدمة لـ «الجمهور». (جريدة «الأهالى»، ٢٥ / ٧ / ٢٠٠٧).

«البحر» غضبان مابيضحكش!

دراسة علمية حديثة، نال بها باحث شاب، أمين إبراهيم، درجة الماجستير فى جغرافية المياه، من كلية الآداب - جامعة طنطا، قامت بمسح وضعية المياه فى إحدى المحافظات التى تفجرت فيها عملية الاحتجاج على نقصها مؤخراً، محافظة «كفر الشيخ»، توصلت الدراسة إلى أن ٦٤٪ من مراكز وقرى كفر الشيخ (منها ١١٢١ عزبة) محرومة من مياه الشرب، لذا لم يكن مفاجئاً أن «ثورة العطش» تفجرت أول ما تفجرت من «مركز

البرلس»، بهذه المحافظة، التى يتولى موقع محافظها «صلاح سلامة»، الرئيس السابق لمباحث أمن الدولة، حين تظاهر أكثر من أربعة آلاف مواطن، وقطعوا الطريق السريع، لمدة عشر ساعات، حتى أجبروا السلطة على توصيل المياه لرى أراضيهم ومن أجل الشرب أيضاً، وبعدها تدفق طوفان الغضب بسبب نقص المياه فى أغلب قرى ومحافظات مصر، فهذه المرة لم يستكن الفلاحون المصريون لهذه الضربة القاتلة الغادرة، فالماء هو سر وجود الفلاح، ليس فى مصر وحدها وإنما فى كل مكان فى العالم، وبدونها تستحيل الحياة، ومن هنا كان رد الفعل المباشر للفلاحين (والمفاجئ للبعض) قوياً وهادراً، إذ بدأ المواطنون يحرضون أهالى قرية «دمرو» على التظاهر احتجاجاً على انقطاع مياه الشرب بصفة دائمة، ومحاولة انتزاع ١٠٠٠ فدان (الفدان الواحد حوالى ٤٤٠٠ متراً مربعاً) من أجود أراضى القرية لإقامة مشروع حكومى عليها، وتجمهر مزارعو محافظة الدقهلية احتجاجاً على رفض «بنك التنمية والائتمان الزراعى» تسلم محصول القمح، واتهموا «الحكومة» بالتحريض على عدم زراعة القمح، واتجاهها لاستيراده، مما يهدد بالقضاء على زراعته (مصر واحدة من أكثر دول العالم استيراداً للقمح.... الأمريكى!)، وفى محافظة «سوهاج» بجنوب الوادى، توصل تقرير «لجنة لتقصى الحقائق» إلى أن خمسة وسبعين مصاباً بالتسمم، نقلوا إلى المستشفيات، بسبب تخزين مياه الشرب بحظائر المواشى واختلاطها بالصرف الصحى، وهو ما أدى إلى تفشى حالة الغضب بين المواطنين، ويوم الحادى عشر من شهر يوليو (آذار) الحالى اعتصم ثلاثة آلاف مواطن بقرية «بشبيش» بالمحلة، احتجاجاً على نقص مياه الشرب، وهدد عشرات الآلاف من قرى مجاورة بالانضمام إليهم، فيما احتشد المئات من فلاحى «رشيد»، بدلتا النيل، مهددين بالاعتصام والإضراب عن الطعام احتجاجاً على عدم وصول مياه الرى إلى أراضيهم، وفى نفس الوقت شهدت قرية «بلقاس» بمحافظة الدقهلية، اعتصاماً كبيراً أجبر السلطات على بدء العمل فى

تطهير الترعة التى تنقل المياه إلى أراضيهم، وبعد يوم واحد تظاهر أكثر من خمسة آلاف فلاح فى ذات المحافظة، ضد العطش ونقص مياه الرى، مهددين بالإضراب عن الطعام إذا لم تحل هذه المشكلة، فيما تظاهر خمسة عشر ألف مواطن، بمحافظة دمياط، حاملين «الجراكن» البلاستيكية الفارغة، مطالبين بحقهم فى مياه شرب صالحة للاستخدام الآدمى، وتظاهر ثلاثمائة مزارع فى مدينة «بلقاس»، طلباً لسماد «اليوريا»، الذى اختفى من الأسواق ورفع التجار سعره لأثمان خيالية!، وهدد المزارعون ـ العطشى هم وأراضيهم ـ فى محافظة «الإسماعيلية» بالدخول فى إضراب مفتوح عن الطعام إذا لم تحل مشكلة إمدادهم بالمياه، وعاد نحو ١٢٠ ألف مواطن بمحافظة الدقهلية يهددون بإضراب مفتوح بسبب بوار ١١ ألف فدان نتيجة لحرمانها من مياه الرى، فيما تواصلت أزمة مياه الشرب، وإكراه المواطنين على تناول مياه الصرف الملوثة بدلاً من الموت عطشاً، وأصيب تسعون فرداً بسبب التدافع على المياه فى نفس المنطقة، حيث اعترف المسئولون فيها أنّ مياه الشرب ملوثة بمياه المجارى، بينما هدد سكان أربعة قرى بمسيرة احتجاجية حاشدة أمام مجلس الوزراء، وواجه مواطنو محافظة «بنى سويف» بصعيد مصر، العطش وبوار الأرض ـ على نحو ما كتبت الصحف ـ بشعار «الاعتصام هو الحل»، إذ هدد نحو عشرين ألف مواطن بقرية «السعدية»، بالاعتصام ضد العطش بسبب انقطاع المياه، معلنين أن «الاعتصام هو الحل الوحيد للحصول عليها»، وتجمهر المئات من مواطنى قرى «الجهاد» و«التضامن» و«المنشية» التابعة لمركز «سمسطا» (محافظة بنى سويف)، بسبب انقطاع مياه الشرب، وإصابة بعضهم بأمراض الفشل الكلوى نتيجة تلوثها، فيما واصل مواطنو قرية «كفر غنّام»، التابعة لمركز «السنبلاوين» اعتصامهم المفتوح ـ لليوم السادس على التوالى ـ احتجاجاً على تجاهل المسئولين لمطالبهم بتوفير مياه لإنقاذ ١٢٠٠ فدان، من البوار، بعد جفاف الترعة الرئيسية بالقرية، وفى محافظة «دمياط»

اعترف محافظها، الدكتور محمد البرادعى، أن المصرف الذى يلوث مياه الشرب فى العديد من قراها يعد «كارثة بيئية»!، على حد وصفه، وأعلن المواطنون فى المحافظات العطشى يوم الأول من شهر أغسطس (آب) القادم، موعداً للتظاهر، بالفؤوس و«جراكن» المياه الفارغة، أمام مجلس الشعب بالعاصمة المصرية لتقديم ما أسموه «وثيقة العطش» إلى المسئولين، بعد أن احتشدوا رافعين لافتات مكتوب عليها «عطشانين فى بلد النيل»، منتقدين ارتفاع نسبة الأملاح فى مياه الشرب وانتشار الطحالب فيها، الأمر الذى أدى إلى تفشى الإصابة بالفشل الكلوى بين المواطنين.

• الشعب هو الباقى حى:

هذه عينة من مظاهر «ثورة العطش» التى تجتاح «وادى النيل» هذه الآونة، وهى تعكس ملمحاً من ملامح صورة مصر الراهنة، المليئة بالغضب وعناصر التوتر والانفجار وهى «الثورة» التى تضاف إلى تحركات العمال الذين زلزلت إضراباتهم واعتصاماتهم مصر من أقصاها إلى أقصاها طوال العشرين شهراً الفائتة، والمثقفين الذين خاضوا صراعاً دامياً ضد السلطة ـ منذ أن ألقت حركة «كفاية» حجرها فى البئر السياسى الراكد، مع نهاية عام ٢٠٠٤، فحركت دوامات الاحتجاج المتسعة دوماً، والقضاة، وأساتذة الجامعة الذين أعلنوا جميعاً رفضهم للنظام، وأداروا الظهر لسياساته المعادية، ولبرامج «تحرير» الاقتصاد التى ضاعفت معدلات إفقارهم وتبعية بلادهم.. مؤكدة أن مصر دخلت مرحلة جديدة سيكون من المستحيل على النظام الحاكم، أو أى نظام قادم حكمها بنفس الاسلوب الذى كانت تحكم به من قبل.

لقد أدى تجاهل صيحات «المعذبين فى الأرض» المنتشرين على امتداد الوادى، وتراكم عمليات الإفقار على مدى العقود، وإهمال أوضاع الفلاحين، وسائر طبقات المجتمع الكادحة فى مصر، إلى تدهور مريع فى

أحوالهم المعيشية، فبحسب تقرير للأمم المتحدة، استعرضه د. عثمان محمد عثمان، وزير التخطيط، فى حكومة د. أحمد نظيف، مع أنطونيو فيجلانتى، الممثل المقيم للأمم المتحدة فى القاهرة (مارس ٢٠٠٥)، فإن نحو ٣٤٪ من سكان مصر يعيشون تحت حد الفقر. (يرفع بعض الاقتصاديين الثقاة فى مصر، كالدكتور نادر الفرجانى والدكتور إبراهيم العيسوى، وآخرين هذه النسبة بدرجات كبيرة متفاوتة)، ٦٨٪ منهم يقطنون فى صعيد مصر (حيث تتراكم مسببات ومظاهر التخلف و تدهور الأوضاع المعيشية)، ويعيش ١٦,٧٪ من السكان بأقل من دولار واحد يومياً، فيما لا يحصل أكثر من ١٠ ملايين مواطن على احتياجهم الكافى من الغذاء، وتنتشر أمراض سوء التغذية فى ٢١٪ من قرى صعيد مصر، وتزيد نسبة الأمية بين الفقراء عن ٥٢٪.

فقد يتكلم مثقفو مصر فتتجاهل آذان السلطة الاستماع لأصواتهم، وقد يصرخ المهنيون فلا تجد صرخاتهم آذاناً صاغية لدى أهل الحكم وصناع القرار أما إذا تحدث الفلاحون، أو تحرك العمال، فلابد للجميع أن يرهفوا السمع، لأن صوت الشعب أقوى من كل محاولة للتجاهل أو الخداع أو السيطرة.. فالشعب، كما يقول شاعره «أحمد فؤاد نجم»:

«هو الباقى حى
هو اللى رايح
هو اللى جاى
طوفان شديد
لكن أكيد
يقدر يعيد
صنع الحياة!»